الدلالة الخفية في اللغة الصوفية

أ.م.د. حسن جبار محمد الشمسي
كلية التربية ــ جامعة البصرة

مقدمة

النص الشعري ، مكمن للخلق والإبداع وأداته الحقيقية هي اللغة ،بوصفها وسيلة من وسائل الكشف والاستبطان التي تثير المتلقي وتهز مشاعره بإيحاء الجميلة وبإيقاعاتها الأخاذة. واللغة الصوفية هي لغة المجاز والكناية ،لغة الروح ،لغة الحس الوجداني ،لغة الرمز الإشاري الذي يضمر الكثير من المعاني الدلالية الكامنة في بنائها الرمزي والذي يوحي بتعدد المعاني ،لان الشعر الصوفي لاينوه بالأشياء الواقعية مباشرة بل يعبر عنها بطريقة رمزية أشارية مستترة. وهذا هو شان الأدب والفن ،وان سمتهما الرئيسة هي الإبداع الفني ،وتجسيد النشاط الروحي للإنسان وهذا كله – بطبيعة الحال– يرتد إلى قيم أشارية ويشير ألي دلالاتها الشاملة وقد أكد شارلس بيرس على أن كل فكرة إنما هي إشارة ولذلك فان الدلالة على المراد ،أي صنع الإشارة وتوظيفها هي نشاط خاص بالإنسان وهي شيء يحل بالنسبة ألي شخص ما على شيء أخر فالإشارة التي تقترن بالرمز تمثل شيئا وتأخذ محله ،لأنها تعوض عنه في الذهن ما قال به الصوفيون في فلسفتهم ،حينما قرنوا أنفسهم بصورة الإله. فعالم الرمز والإشارة هو عالم مغلق لا تتبين مغاليقه الأمن خلال التأويل وفك حدود اللغة المغلقة أيضا ومع ذلك فان التجربة الصوفية تقوم على ظاهرتين أساسيتين هما الظاهر والباطن أو ثنائية العقل والقلب ،والعقل هو ملكة معرفة الظاهر والقلب هو ملكة معرفة الباطن ،ولهذا فان العقل يعني بالظواهر الخاصة بالعالم الخارجي بينما القلب يعني بالظواهر الداخلية تؤدي دورها بوصفها وسائط ذاتية بين المخلوق والخالق أو بين العبد والحق . وإذا كان العقل متعلقا بظاهر النص أي بوجهه السطحي ، فان القلب متعلق بمجاري الإشارة والرموز وبعمليات التأويل التي تكشف المعاني المتعددة في أنظمة العلاقات اللغوية . أن النص الصوفي لا يمكن الكشف عن مكوناته الحقيقية الأمن خلال قراءة وتأمل واستثمار الهياكل اللغوية المكونة لبنيته الفنية والفكرية . واللغة الصوفية تنبني على الصلة الحقيقية مع المتخيل وتجاوز الواقع من اجل الغوص في الواقع واستقصائه وكشف ما يضمره من دلالات . لان اللغة الصوفية هي لغة رموز وإشارات وتلويحات ((فالرمز والإشارة هما الكلام الإلهي للعبد القائم بين الله والإنسان))[1] ومن اجل ذلك نعتوا التصوف بأنه علم إشارة يقول أبو الروذباري ((علمنا هذا علم إشارة صار عبارة خفي)) [2] . ومن ذلك فقد كانت اللغة الرمزية السبيل في كتابة الصوفيين كتابا وشعرا لان الرمز ((يحوي إشارة حرفية وكذلك مدى ، أعظم منها بكثير من المعنى والتضمين والعاطفة)) [3] . ولهذا فقد اقترن الرمز بالتصوف ، بعامة وعد من ابرز معالمه[4]. وهذا يتجلى في التوظيف الفني للغة ولجمالياتها ، وان استيعاب التجربة الصوفية والنفاذ ألي باطنها وتوظيفها توظيفا غير عاد ، ومن ثم اللجوء ألي الانحراف الأسلوبي كل ذلك يحقق الكشف عن الحقائق المطلوبة التي لا تحققها اللغة في أنماطها التركيبية العادية . ولعل ابرز الاتجاهات الشعرية عند الصوفية والتي تنسجم رؤيتها أكثر من غيرها ، ما يتجسد في أقاويل (النفري) والتي تستبطن الطابع الرمزي الإيحائي حتى اقترن عند البعض في مجمل ما قاله بالسريالية وتنظيراتها الغربية (*). ولجا البعض الأخر إلى تفسيرها بموجب التأويل الرمزي الإشاري بوصفه ((تأويلا استنباطيا للآيات القرآنية يستخلص الإشارة من العبارة بطريقة لا تخالف ظاهر الآية اعتمادا على إشارات خفية ومعان إلهامية تتضح للصوفية))[5]. فاللغة مجموعة دوال معجمية كامنة في الأسفار ، وان العبقرية اللغوية تتجسد في كيفية توظيف هذه الدوال ثم في وضع نظام لغوي في داخل الخطاب الشعري أو النثري عند الصوفية بخاصة ، فالخطاب الشعري مثلا عند الحلاج ، نفسه الخطاب النثري عند النفري رغم الاختلاف في الأجناس الأدبية (*) ولكن اللغة التي يكتب بها النفري تقف البنية الرمز واستثمار الدلالات العميقة في

النص أساسا في غموض المعنى و إنبهامه على الصوفيين الذين كانوا يميلون ألي الغريب من الألفاظ والعبارات ، يقول صاحب اللمع :وهذه الأشعار فيها ما هي مشكلة ، وفيها ما هي جلية ، ولهم فيها إشارات لطيفة ومعان دقيقة ، فمن نظر فيها فليتدبرها حتى يقف على مقاصدهم ورموزهم ، ولا ينسب قائلها أل ما لا يليق بهم وإذا أشكل عليهم ولم يفهم فليبحث بالسؤال عن من يفهم لان لكل مقام مقالا ، ولكل علم أهلا [6] من ذلك مثلا قول الحلاج الذي مثل التصوف في الثروة الشعرية التي جاء بها والتي ((لا يعادلها شاعر أخر من أتقرانه ، كما استطاع أن يرسم صورة محددة المعالم للقصيدة الصوفية التي أصبحت ذات طابع خاص يميزها عن أية قصيدة أخرى في الشعر العربي)).[7] وكان الحلاج بارعا" في موضوعاته الشعرية ، وكان يختار العلامات الدقيقة في تفكيره ولدية نزاع قوي في إفناء المخلوقات في الخالق وذلك بتعبير أدبي أخاذ تتجلى فيه براعة الأديب ومهارة الفيلسوف المدهشة يقول [8]:

نسمات الريح قوالي للرشا ... لم يزدني الورد ألا عطشا
لي حبيب حبه وسط الحشا ... أن يشأ يمشي على خدي مشى
روحه روحي وروحي روحه ... أن يشأ شئت وان شئت يشأ

ويقول في موضع أخر :

قلوب العارفين لها ... ترى ما لا يراه الناظرونا
ولجنحة تطير بغير ريش ... ألي ملكوت رب العالمينا [9]

فالمحبة عند الصوفي لا تقترن بالمعصية ،بل هي من نوع خاص فلا يخالطها أي كدر دنيوي، لأنها محبة خالصة للمحبوب ، ويتضمن معناها غاية سامية هي الاتصال بالذات ألالهيه ، وبمعرفة هذه الذات ومتعلقة بها وإذا كان بعض الشعر الذي قاله الصوفيون يحمل قرائن دالة على انه غزل الهي ،فقد تجد أحيانا نصوصا يصعب فصلها عن الغزل الإنساني وجعلها غزلا إلهيا" . وفي ذلك ما يؤكد امتزاج الغزل الإلهي بالغزل الإنساني ، حتى لأتتين الفرق بينهما الأمن خلال القائل ، وتجدر الإشارة هنا ألي أن الشعر عند العذريين ،في وصف دقائق المشاعر الإنسانية كالشوق والصد وذل الحب وغيرها من المشاعر

أفديك بل قل أن يفديك ذو دنف
هل في المحبة للمشتاق من عار
بي منك شوق لو أن الصخر يحمله
تفطر الصخر عن مستوقد النار
قد دب حبك في الأعضاء من جسدي
دبيب لفضي من روحي وإضماري
فلا تنفست آلا كنت مع نفسي
وكل جارحة من خاطري جاري

ومن خلال هذه الآبيات الشعرية يتم الكشف عن مكنونان التجربة الصوفية ، وإظهار ملابستها ومعمياتها ، وذلك بطريقة الانتقال بالمعنى الظاهر ألي معناه الباطن الذي يتوجه نحو الذات الإلهية . وكل ذلك يتم بطريقة العشق أو الحب .

يقول العطار:(العشق هو مفتاح التصوف)[11]. وهو ((حجر الزاوية في الرؤية الصوفية وعليه تتأسس نظريتهم في المعرفة بل في الوجود كله))[12]. لقد نظر الصوفية نظرة عميقة إلى الأشياء و نظرتهم هذه ترمي إلى الكشف الجوهري في الأشياء وعن الثابت في المتغير ، فاستخلصوا ما لم يستخلصه غيرهم مع تيقنهم بإثبات ما استخلصه الآخرون من آهل الشريعة والوقوف معه لا عنده إن الصوفية استعانوا بلغة خاصة بهم نقلوا فيها أفكارهم ومواجيدهم ، ووظفوها في شعرهم ، كما وظفوها في رسائلهم وكتبهم قال السراج ((من أراد أن يقف على رموز مشايخنا فلينظر إلى مكاتباتهم ومراسلاتهم فان رموزهم فيها)) [13] فالصوفي يميل ألي اللغة ذات الدالة الخفية ويميل استدعاء معانية بطرائق الرمز المجرد الذي هو ((معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر ، لا يظفر به إلى أهله))[14] . وليس أدل على ذلك من اعتمادهم اعتمادا" مباشرا" على شطحاتهم والاختفاء وراء أساليب شتى من الشرح والتأويل لشرحها وكشف مغاليقها. وهكذا تنطلق التجربة الصوفية من القول ((أن الوجود باطن وظاهر وان الوجود الحقيقي هو الباطن))[15].

ونستطيع كشف الباطن من خلال اللغة الرمزية التي تستبطن المعنى الذي تستره الألفاظ وتحجبه الكلمات وهكذا يصبح الشطح على وفق ما تقدم ((لغة رمزية تعبيرية عن تجربة صوفية تتضمن عبارات لاإرادية مستغربة عصية على فهم كل

من لم يألف حقيقتها ولم يذق مواجيدها ولم يطرقها ، طالما صدرت عن حال سكر ووله وهيمان ووجد))[16]. ومن هنا كانت التجربة الصوفية تحدد بوصفها حركة بين القلب اللامتناهي ، بشوقه وحبه ، والمطلق اللامتناهي أما العقل فانه يعد حركة متناهية تتجه نحو اللامتناهي ((وهذا الإطلاق للفاعلية القلبية فرض على التجربة الصوفية طريقة جديدة في التعبير ، ذلك انه كشف عن مناطق لا تحيط بها اللغة ، لأنها من غير طورها ، ومن هنا لم يكن بد من خلق لغة ثانية ، داخل اللغة الأولى ، هي لغة الرمز والإشارة . فما لا يمكن أن يوصف أو يعبر عنه بالكلام ، تمكن الإشارة إليه رمزا والتعبير بالرمز هو وحده الذي يمكن أن يقابل الحالة الصوفية التي لا تحدها الكلمة))[17]. وهكذا أيضا فان الشطح يتجاوز الواقع والمنطق ، ولهذا فان من مكونات التجربة اللامعقولة والغرابة ، وهي بذلك تعد تجربة شنيعة لان (باطنها مستشنع وظاهرها صحيح مستقيم) [18] وكل ذلك يتحقق بالفناء ، أو حال المشاهدة ، وهي نفسها الحب الذي قال به الصوفية ، فالحب كما يؤكد الصوفيون هو فناء عن الذات وبقاء بالانت أو الله يقول أبو عبد الله القرشي ((حقيقة المحبة أن تهب كلك من أحببت فلا يبقى لك منك شيء))[19]. ويقول الشبلي ((سميت المحبة محبة لانها تمحو من القلب كل ما سوى المحبوب))[20]. ويعبر البسطامي عن حالة التوحد مع اللامتناهي ، المطلق الله ، فيقول:(سبحاني! سبحاني)[21]. ويقول مخاطبا الخالق (كنت لي مرآة ،فصرت أنا المرآة)[22]. وفي مرة أخرى يأخذ فيه الإنسان مكان الخالق ويأخذ دوره أيضا : (لان تراني مرة خير لك من أن ترى ربك ألف مرة) [23]. نصل من خلال إن الصوفي يصل إلى هذا المقام بقدرته غير المتناهية ، فيعلن انه أعظم من النبي فتتحول قدرته لتصبح كقدرة الله ، لأنها قدرة مطلقة لا يحدها شيء كقدرة الله وفي هذا الصدد يقول البسطامي : ((إن لوائي أعظم من لواء محمد))[24]. ويقول كذلك : ((خضت بحرا وقف الأنبياء بساحله)) [25] . وان الاهتمام بالعشق عند الصوفية يفضي إلى مبغى هو الوصول إلى الحقيقة ، ذلك (إن السر كامن في أن العشق يمد السالك بذخيرة تساعده على سلوك الطريق حتى ولو كان غاية في الضعف الجسماني ، فهو يمد الروح بطاقة دافعة لها على المضي في طريق المعرفة حتى تصل إلى أدرك الفناء) [26]. ويمكن أن نستنبط حقيقة المعرفة من خلال عملية الفناء ، والفناء يمثل الوحدة الوجودية عند الصوفيين ، فالصوفية كما يعرفها الجنيد (هي أن تكون مع الله بلا علاقة)[27] والفناء أيضا هو (محو واضمحلال ، وذهاب عنك وزوال) [28] .

ويقول أبو بكر الشبلي :-

ليس تخلو جوارحي منك وقتا
هي مشغولة بحمل هواكا
ليس يجري على لساني شيء
علم الله ذا – سوى ذكراكما
وتمثلت حين كنت بعيني
فهي – إن غبت أو حضرت – تراكا [29]

ويقول :-

قد تخللت مسلك الروح مني
ولذا سمي الخليل خليلا
فإذا ما نطقت كنت حديثي
وإذا ما سكت كنت غليلا [30]

ويقول في المعنى ذاته :-

الحمد لله على إنني
كضفدع تسكن في اليم
إذا هي فاهت ملأت فمها
أو سكتت ماتت من الغم [31]

إذن اللغة الصوفية هي لغة غير شائعة ، مثيرة للدهشة وعدم الرضا تصدم الحس المألوف ، فالكلمات في هذا اللغة تأخذ وظيفة مختلفة ومعاني جديدة ، فالكلمة عند الصوفية تحمل ما لا يحمله الكلام العادي ، وتعبر بغير الكلمات العادية . يقول أبو بكر الشبلي الذي أعطى للحب الصوفي بعده الحقيقي ، وكشف عن القيم التعبيرية التي تعكس معنى الحب بتوهجه وغلياته

يا موضع الناظر من ناظري
ويا مكان السر من خاطري
يا جملة الكل التي كلها
أحب من بعضي ومن سائري
تراك ترثي للذي قلبه
معلق في مخلبي طائر
موله حيران مستوحش
يهرب من قفر إلى آخر

يسري وما يدري وأسراره

تسري كلمح البارق النائر

كسرعة الوهم لمن وهمه

على دقيق الغامض الغابر

في لج بحر الفكر تجري به

لطائف من قدرة القادر

" ومع أن الصوفي يكتب باللغة نفسها التي يكتب بها الناس جميعا فهو شان الشاعر يستخدمها بطريقة مختلفة ، ويجعلها تقول شيئا آخر مختلفا انه يضع الكلمات في فضاء لم تعهده ، ومن هنا يخلق بها جمالا غير معهود " . ونجد ذلك واضحا بينا عند النفري ، وخاصة في مؤلفه (المواقف والمخاطبات) الذي زخرت لغته بتبني الجانب الرمزي ، وتبني الكثير من أنماط الدلالة المتعارف عليها . وهذا الذي يخرج النص الصوفي من ظاهريته اللغوية " ويستنبط عنه معنى من المعاني الخفية المحتملة ، ويكشف فيه ما انغلق من معنى " والصورة عند النفري لا تتشكل من تركيب لغوي مكتمل الأدوات التعبيرية ، يخلق علاقات احتمالية يتعدد بها المعنى ، لغرض أهداف تعبيرية تخالف الأشكال التعبيرية المباشرة " [34]، فيقول في إحدى مواقفه مثلا :-

" وقال لي إذا جئتني فالق العبارة وراء ظهرك والق المعنى وراء العبارة والق الوجد وراء المعنى " [35] . " وقال لي علامتك رؤيتك لغضبي إن صمت ألا تبالي ما ذهب منك في وما بقي . وقال لي علامة ذلك فيك أن ترضى به حتى نلتقي " [36]

فبنية النص عند النفري بنية فنية متكاملة تمتلك طاقة إيحائية عالية ومتفجرة بالتأويلات والاحتمالات وتعدد المعاني وبالدلالات الخفية أيضا" ومعروف أن للصوفية لغة اصطلاحية خاصة بهم ، لذلك فهم يؤثرون الرمز والإشارة على التصريح والعبارة ، وان القشيري يقول : " إن هذه الطائفة يستعملون ألفاظا" فيما بينهم ، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم ، والإجمال والستر على ما بينهم في طريقتهم ، لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب ، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها" [37] . ولهذا فان اللغة الأليفة لا تجمل من الصوفي أن يروم المناطق التي يريد الوصول إليها ، بل اعتمد اللغة الثانية ، فكانت كتاباته بمثابة لغة داخل اللغة التي تصل إلينا من خلالها المعاني العميقة ، ولذلك فهو دائما يلجا إلى الرمز والى اللغة الرمزية .كتب نصر حامد أبو زيد في كتابة " فلسفة التأويل " " إن الفهم في إطار اللغة الوضعية هو إدراك معنى شفرة المتكلم في سياقها الذاتي ، أما العلم في إطار هذه اللغة فهو إدراك المعاني والدلالات المتعددة التي يمكن أن تحملها الشفرة " [38]. إذن فالصوفيون تعاملون مع اللغة ومخزونها ، لا تجاز صورهم الفنية ، وكذلك ما يمكن أن تنبعث خلالها من دلالاتها الباطنية العميقة ، وهم بذلك يجسدون المحتوى الفكري للتصوف الإسلامي ، فكما ينظرون لقضية الوحدة الوجودية يعين القلب بوصفه المطلق اللامتناهي في التعامل مع قضاياهم الفكرية ، فإنهم ينظرون إلى بنية التعبير الفني بوصفها وحدات لغوية لها أنساقها اللغوية المحسوسة التي تختزن طاقة تأويلية غير محسوسة ، إذن فالصوفي كان يريد أن يتعامل مع ما وراء اللغة لان اللغة المألوفة لا تنسجم مع رؤيته ورؤياه . لعل لجوء الصوفيين إلى الرمز من باب رجوع الصوفي إلى الطبيعة ما يكتنفه من مشاعر وأذواق مبهمة وبعيدة الغور في أعماق النفس ، والى عدم تمكن اللغة العادية من احتواء مشاعرهم والإحاطة بها ، والتي يكون تلمسها بطريقة الحدس الذوقي ، ولذلك فان التعبير الرمزي عند الصوفيين هو من انسب الأساليب التي يرغبون في التعبير بها عن مواقعهم الفكرية وبذلك لا يتعذر الدخول إلى عالم التجربة الصوفية عن طريق عباراتها . فالإشارة ، لا العبارة ، هي المدخل الرئيس . وهذا يعني " إن اللغة الصوفية هي تحديدا ، " لغة شعرية ، وان شعرية هذه اللغة تتمثل في أن كل شيء فيها يبدو رمزا ، كل شيء فيها هو ذاته شيء آخر ، الحبيبة ، مثلا هي نفسها ، وهي الوردة، أو الخمرة ، أو الماء أو الله ، إنها صورة الكون وتجلياته ". وقدرة الكلام في هذا المنظور ، أشارية ، ورمزية ، " وسوف يظل القول الصوفي ، شان القول الشعري مجازا ولن يكون حقيقة كمثل القول الديني الشرعي[39] . اللغة الصوفية ، إذن هي التي تحمل الدلالة الخفية في القول الصوفي ، وهي أداة التعبير عن تجربتهم ، وهي لغة خاصة في أسلوبها ، ومصطلحاتها ، ورمزها وفي إشاراتها وتأويلها .

قال أبو العباس بن عطاء :-

إذا أهل العبارة ساءلونا

أجبناهم بإعلام الإشارة

نـشير بـها فنجعلهـا غموضا

تـقصر عنـه ترجـمة العبارة

ونـشهدهـا وتشهدنـا سرورا

لـه فـي كـل جـارحـة أثاره

نرى الأقوال في الأحوال أسرى

كاسر العارفـيـن ذوي الخسـارة [40] . "

فعالم الرمز ، نجح فيه الصوفيون أكثر مما نراه عند الأديب العربي ، واستعان الصوفي بالإشارة والدلالة الخفية " ليفضح أو يلمح إلى ما لا تستطيعه الكلمات ، بل والى ما وراء المغلق والشائع ، والمحدد ، وهي كالرموز ، أو هي رمـوز تطـرح الفكر خارجا عند الحدود والسطح ، لتوغل في الأعماق وتوحي باللامتناهي "[41] . من ذلك نستطيع أن نصل إلى مسالة مفادها إن اللغة الصوفية تحمل في بنيتها الفنية دلالات متعددة وكأننا نحسن الظن إذا قلنا إنها لغة حمالة للكثير من وجوه الدلالـة التي تختفي وراء بنيتها لذلك يمكن القول أن الأدب الصـوفي أدب رموز ، وان الرموز تحمل الكثير من الـدلالات التـي لا تستبطنها اللغة المألوفة . "وإن الشاعر يستطيع أن يعبر عـن العالم الداخلي ... من خلال المادة الروحية ...المادة التي يكون الفنان قد استبطنها وولج إلى أحشائها ... ونفذ إلى الحقـائق المستترة في قلبها وهكذا تغدو الرمزية المذهب الفنـي الـذي يستبطن العالم الخارجي ويستظهر العالم الداخلي بعد أن يحـل في روح المادة كما يحل الصوفي في ذات الحقيقة " [42] . وقد نزع أصحاب المذهب الرمزي نزوعا صوفيا ، وكـذلك نـزع الصوفيون نزوعا رمزيا في استبطان الوجود والنفس أيضـا . ولهذا فالصوفي "يفهم مظاهر العالم على إنها رمز ، والعـالم عنده لا يختلف عن أحلام النائم ، فكما إن الحلم يعرض أحداثه عرضا رمزيا ، فكذلك العالم ، كل ما فيه رمز ، وكل ما يقـع تحت عينية ، وما يسمع بإذنه وما يتصل بجمع حواسه ، رموز يستنتج منها ما يغذي عواطفه ومشاعره "[43] . وقد يتحقـق هذا من خلال توظيف اللغة المجازية التي تشير إلـى حاجـة النفس في تجاوز الحقيقة. "وهو أذن وليد حساسـية تضـيق بالواقعي ، وتتطلع إلى ما وراءه " [44]. والمجاز يخرج الواقع من مكوناته الأليفة ، وكذلك يخرج الكلمات التي تعبر عنه من سياقها الأليف ، وبهذا فان معناه يتغير وان معنـى الكلمـات يتغير أيضا ، ولذلك تنشا علاقات جديدة بين الواقـع والكلمـة وبين لكلمة باتجاه التغيير . سسوقد أسست الصـوفية لكتابـة تمليها التجربة الذاتية داخل ثقافـة تمليهـا معرفـة دينيـة مؤسسية ، عامة كتابة لا مكان لها . كان أصحابها لم يكونوا يعيشون في المكان بل في نصوصهم . كان الـنص بالنسـبة إليهم الوطن والواقع . وكان الصوفي يتحرك داخل هذا النص ويخلق به وفيه العالم الذي يحلم به ، كانت الكلمـات مخـابئ لدروبه ، وآفاقه ، ورموزه " [45]. وقد أولت الصوفية أهميـة بالغة لا بوصفها وسيلة للتواصل ، وإنما وسيلة للتعبير ، ولا سيما وهم يدخرون دلالات تزخر بها هذه اللغة ، لأنها لغـتهم المعروفة . وبما أن المجاز يخرج الكلمات من يخرج الكلماتَ منّ حدودهاَ الحقيقيةَ ، فان العلاقات التي يقيمها بينها وبـين الواقع ، إنما هي علاقات احتمالية – يتعدد بها المعنى ، ممـا يولد اختلافا في الفهم " . إن هذه العلاقات الاحتمالية دائما في النص الصوفي ، ففي بنائه يتعدد المعنى ، ولذلك يتولد اختلاف في فهم المضامين ، مما جعل نصوصه أكثـر انسـجاما مـع مناهج التأويل الرمزي الباحث عن حقيقة النصوص ومكوناتها الدلالية. فالصوفيون "لجاءوا إلى استعمال المصطلحات الخاصة واللغة المجازية والرمزية في التعبير عما يدور في خواطرهم وقلوبهم " [46] فبالتأويل الرمزي الإشاري ، الذي هـو تأويـل استبطاني يستخلص الإشارة من العبارة ، وذلك اعتمادا علـى إشارات خفية ومعان إلهامية تتضح للصوفية فـي نصوصـهم الشعرية والنثرية على حد سواء " فبالتأويل أذن يرفع التعارض بين ظاهر النص وباطنه ، وبين ظاهر الألفاظ وباطنها . ولذلك يصبح لغة تعبيرية عميقـة تتبـين عبرهـا أفكـار الصـوفي ومضمون تجربته الذاتية " [47]. وذلك يتم مـن خـلال النظـر النقدي الدقيق واستخلاص المعاني والقيم البلاغة والفكريـة ، التي يدخرها النص خاصة. فالنص الصوفي له وجهان ، وجه سطحي هو ظاهر النص ، ووجه عميق هو باطن النص ، اللغة الخفية في النص الصوفي تتمحور في وجهه العميق ما تحمله العبارة فيه من إيماءات متعـددة . إذن الصـوفية لهـم لغـة اصطلاحية معروفة ، يؤثرون فيها الرمز والإشارة ولا يأبهون بلغة العبارة التصريحية لان العبارة عندهم تضيق كلما اتسعت الرؤيا . فهم أولا لا يؤمنون باللغـة ذات الأبعـاد الظاهريـة السطحية التي ترضي المألوف وتندرج فيه وتـتلاءم معـه ، وإنما يؤثرون اللغة العميقة التـي تفجـر المعنـى الفكـري والفلسفي ، ليخرجوا باللغة عن لغة الوضوح والصراحة وهذا بطبيعة الحال يتطلب جهدا فكريا وتأويليا' يكشف الكثيـر مـن

الاحتمالات التي تقررها القراءة الدقيقة للنص . ومع كثرة ورودنا على هذا المنهل الخصب من أنماط الشعر العربي ، قراء أو دارسون ، فان إحساسنا سيعمق كل ما نقرا من نصوص . الشعر الصوفي بدء فتشكل علاقة جوهرية مع النفس لأنها تعبر عن إضطراباتها التواقة إلى معرفة الحقيقة . ولذلك فان الخطاب الصوفي هو خطاب إيحائي ، لا يقدم لنا الواقع كما هو ، وإنما يقدم لنا ما يساعد على تلمسه ، لان لغته لغة ذات وجوه متعددة للدلالة .

الهوامش

1) فلسفة التأويل : 267
2) اللمع : 414
3) الأسطورة والرمز : 6
4) التصوف الثورة الروحية في الإسلام : 248.((والتجربة الصوفية تشبه الرمز فيما تلتمس من تعبير)) ((كتاب اللمحات للسروردي)) تحقيق أميل المعلوف دار النهار للنشر، بيروت 1969
5) خصائص التجربة الصوفية : 97
   - أنظر: الصوفية والسريالية : 185 وما بعدها . ينظر قراءة في شعرية النثر الصوفي : 80 وما بعدها.
   - لغرض بيان البنية اللغوية العميقة في النصوص الصوفية ، ارتأينا الاستشهاد بنصوص شعرية

ونثرية لشعراء وكتاب من عصور مختلفة لتعزيز الفكرة المطروحة في متن البحث

6) اللمع : 327
7) الشعر الصوفي في القرن الثالث الهجري : 52
8) ديوان الحلاج : 61
9) م.ن. : 91
10) شعراء الصوفية المجهولون : 13
11) منطق الطير : 97
12) في التصوف الإسلامي وتأريخه : 92
13) اللمع : 414، ينظر اللغة الغامضة في رسالة الجنيد، م.ن. 113 وما بعدها
14) م.ث. : 414
15) الثابت والمتحول : 92/2
16) اللمع : 453
17) الثابت والمتحول : 92/2
18) شطحات الصوفية : 86/1
19) الرسالة القشيرية : 615/2
20) م.ن.
21) اللمع : 472
22) شطحات الصوفية : 21
23) م.ن.
24) م.ن.
25) م.ن. : 22
26) منطق الطير :96
27) في التصوف الإسلامي وتأريخه : 32
28) قوانين حكم الإشراق : 97
29) الديوان :97
30) الديوان :120
31) الديوان : 121
32) الصوفية والسريالية : 174
33) ديوان : 101
34) خصائص التجربة الصوفية : 95 ــ 96
35) موقف بين يديه/92
36) المخاطبات : 218
37) الرسالة القشيرية : 187/1
38) فلسفة التأويل : 285
39) الصوفية والسريالية : 23
40) التعريف لمذهب اهل التصوف : 89
41) الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم: 170
42) أنظر: الرمزية والسريالية في الشعر الغربي والعربي: 12
43) الرمز في الأدب الصوفي " بحث " : 5
44) الشعرية العربية ، ادونيس : 75
45) الصوفية والسريالية : 115
46) النثر الصوفي : 343
47) أنظر : خصائص التجربة الصوفية : 96 وأنظر : ص : 97